



كلية اللغة العربية بأسسيوط
المجلة العلمية

السياق في دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١هـ عرضاً ودراسة

إعداد

د/ عبدالله بن علي السكاكر

رئيس قسم اللغة العربية - إدارة الإشراف التربوي - الإدارة العامة للتعليم
بمنطقة القصيم - وزارة التعليم - المملكة العربية السعودية

(العدد التاسع والثلاثون)

(الإصدار الأول - الجزء الأول)

(١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م)

السياق في دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١هـ عرضاً ودراسة

عبد الله بن علي السكاكر

رئيس قسم اللغة العربية - إدارة الإشراف التربوي - الإدارة العامة للتعليم بمنطقة

القصيم - وزارة التعليم - المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني : a.sakaker@gmail.com

المخلص :

يدرس بحث " السياق في دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١هـ عرضاً ودراسة" أصول النظرية السياقية وموضوعاتها في إرثنا العربي ممثلاً بكتاب دلائل الإعجاز، ويوضح مرحلة النضج اللغوي العربي في تحليل السياقات المختلفة بمدلولاتها المعجمية والصوتية والصرفية والنحوية وعلوم البلاغة ، وكشف البحث عن مشتركات نظرية النظم عند الجرجاني مع السياق على المستوى التركيبي والسياق غير اللغوي في دلالات التركيب، ومظاهره كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والإظهار والإضمار، والوصل والفصل ، وتناولت الدراسة تساوق الألفاظ وتضاممها، والتراتبية والمصاحبة بين وحدتين لغويتين أو أكثر، وقواعد النظم وتوليد العلاقات النحوية بينها، والتأثير الموقعي للكلمة والعلاقات الزمانية والمكانية بما لها من هامش دلالي. كما تناولت أثر السياق في تكوين المعنى النحوي وتحويله، وأثر السياق الثقافي في بناء الدلالات الهامشية (الغائبة) والدلالات المجازية، وإقصاء الدلالات المركزية (الأولية) للنص، وعن دور السياق في تكوين، كشف البحث عن العقلية التي انبثقت

منها نظرية النظم، ومستوى النضج اللغوي عند الجرجاني في الدرس السياقي .

الكلمات المفتاحية : السياق - دلائل الإعجاز - الجرجاني - نظرية النظم .

The Context in the Book of Dlael Aleegaz of Imam Abdul-Qahir al-Jurjani (d. 471 AH) study a presentation and study

Abdullah Bin Ali Alsakaker

**Head of Arabic Department - Educational Supervision
Administration - General Administration of Education in
Qassim -**

Ministry of Education - Saudi Arabia .

Email : a.sakaker@gmail.com.

Abstract :

The "Context in the Book of Dlael Aleegaz of Imam Abdul-Qahir al-Jurjani (d. 471 AH) study a presentation and study" The Principles of Contextual Theory and its Topics in Our Arab Legacy represented by the Book of Dlael Aleegaz, and explains the stage of Arab linguistic maturity in analyzing the different contexts with its lexical, phonetic, morphological, grammatical and rhetorical terms. The research revealed the common versification of Al-Jurjani with the context at the syntactic level and the non-linguistic context in the connotations of structure, and its manifestations such as presentation and delay, deletion and mention, manifestation and pronouncement, connection and separation. The study dealt with the consistency of words and their solidarity, the hierarchy and accompanying between two or more linguistic units, the rules of the systems and the generation of grammatical relations between them, the site effect of the word and the temporal and spatial relations, with their indicative margin , It also examined the effect of context on the formation and transformation of the grammatical meaning, the effect of the cultural context on the construction

of marginal (absent) and metaphorical connotations, the exclusion of the central (primary) semantics of the text, and on the role of context in composition. The research revealed the mentality from which the versification emerged, and the level of linguistic maturity of Al-Jurjani's in the contextual lesson.

Keywords : The Context - Dlael Aleegaz - al-Jurjani - the versification

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :

تعد نظرية السياق نظرية لغوية حديثة كانت لها جذور في تراثنا العربي ، فقد ترك علماءنا إرثاً كبيراً في تقرير هذه النظرية ورسم معالمها العامة ، فما أشار إليه الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه، وما أودعه ابن جني في آثاره القيمة ، ثم ما قرره البلاغيون والمفسرون يعد شاهداً حياً لهذه النظرية.

وإن إعادة قراءة تراثنا اللغوي من خلال النظريات الحديثة يفتح للباحث آفاقاً فسيحة في درس اللغوي، إذ يقف القارئ على نصوص متينة ومحكمة تثبت صلاحيتها وأثرها العلمي والتطبيقي في العصر الحديث.

وكتاب دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني أحد الكتب الفريدة في البلاغة والبيان، وتظافت فيه معاني النحو وغاياته، ألفه الجرجاني لإثبات الإعجاز القرآني ببلاغته وفصاحته.

وقدم الجرجاني في هذا الكتاب خلاصة علمه وفكره ومدارسته، وأودع فيه نظرية النظم القائم على تعليق الكلم بعضها ببعض وفق أصول النحو ورسومه، والنظر في بناء التركيب على المعنى القائم في النفس.

وحظيت هذه النظرية باهتمام الدارسين وعنايتهم، نظراً لما تضمنته هذه النظرية من رؤية محكمة للمعاني النحوية، وأسباب الفصاحة والبيان، من خلال التراكيب المختلفة للجمل النحوية.

ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث ليقف على الجهود الموثقة في ثنايا الكتاب حول نظرية السياق بشقيه، وإبراز الجهود اللغوية والدلالية في الكتاب، وما تضمنه من مسائل وقضايا في السياق.

وحمل البحث عنوان " السياق في دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١هـ ، عرضاً ودراسة"، واقتضت طبيعة البحث أن يكون محتوياً على:

مقدمة وتمهيد ، وتضمن التمهيد ثلاثة موضوعات، أولها ترجمة للإمام عبد القاهر الجرجاني، وثانيها تعريف بكتاب دلائل الإعجاز، وثالثها مفهوم السياق وأنواعه، أما صلب البحث فهو مبحثان الأول: السياق اللغوي، وتم فيه دراسة آراء وتوجيهات الجرجاني في سياق النص. والآخر: السياق غير اللغوي، وفيه دراسة للسياق خارج النص. وقد ذيل البحث بخاتمة خلص فيها على أبرز النتائج.

وقد اعتمدت في دراسة كتاب دلائل الإعجاز على تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية والدكتور فايز الداية، نظرًا لما في تحقيقهما من دقة وخدمة للنص، وإن وردت إحالة لتحقيق آخر فإني أنوه على ذلك في الهامش.

وقد اعتنيت بعزو الآيات القرآنية الشريفة، والشواهد الشعرية، ولم أضع ترجمة للأعلام الواردة أسماؤهم .

وأسأل المولى عز وجل أن يكون هذا البحث قد قدم قراءة موضوعية للسياق في دلائل الإعجاز تصف مجمل الجهود والآراء حول نظرية السياق، والخروج من ذلك بنتائج مرجوة توازي قيمة الكتاب العلمية وأهمية السياق في الدرس الحديث.

التمهيد

وفيه:

- ١- ترجمة الإمام عبد القاهر الجرجاني
- ٢- التعريف بكتاب دلائل الإعجاز
- ٣- السياق (مفهومه وأنواعه)

١- ترجمة الإمام عبد القاهر الجرجاني

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني، ولد في أوائل القرن الخامس، وعاش في (جرجان) وهي مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ببلاد فارس في مطلع القرن الخامس للهجرة ولم يفارقها حتى وفاته. (١)

كان منذ صغره محباً للعلم، فأقبل على الكتب والدرس، خاصة كتب النحو والأدب والفقه، وقد وفقه الله بعالمين كبيرين كانا يعيشان في جرجان هما: أبو الحسين بن الحسن بن عبد الوارث الفارسي النحوي، نزيل جرجان، والقاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، قاضي جرجان من قبل الصاحب بن عباد، فأخذ العلم عن أبي الحسين محمد الفارسي ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي كما أخذ الأدب على يد القاضي الجرجاني وقرأ كتابه الوساطة بين المتنبى وخصومه، فكان الشيخ عبد القاهر الجرجاني يفتخر بأنه قرأ عليه واغترف من بحره، وكان إذا ذكره في كتبه تبخبخ به، وشمخ بأنفه بالانتماء إليه. (٢)

قرأ عبد القاهر الجرجاني آثار كثير من علماء اللغة، وقد نقل في كتبه عن سيبويه والجاحظ وأبي علي الفارسي وابن قتيبة وقدامة بن جعفر والآمدي والقاضي الجرجاني وأبي هلال العسكري وأبي أحمد العسكري وعبد الرحمن بن عيسى الهمداني والمرزباني والزجاج.

(١) ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين القفطي ١٨٨/٢، ت محمد أبو الفضل

إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ

(٢) ينظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي ص ١٧٩٧، ت إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي

ط١، ١٩٩٣

ترك عبد القاهر الجرجاني آثاراً مهمة في الشعر والأدب والنحو وعلوم القرآن، من ذلك كتاب المغني في ثلاثين مجلداً في شرح كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي، ثم اختصره في مجلد واحد أسماه المقتصد، وكتاب "الجمل" في شرح كتاب العوامل^(١)، أما في الأدب وعلوم القرآن فكان له: "إعجاز القرآن" و"الرسالة الشافية في الإعجاز" و"دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وقد أورد في كتابيه الأخيرين، معظم آرائه في علوم البلاغة العربية.

وترجع شهرة الجرجاني إلى كتاباته في البلاغة، فهو يعد أحد المؤسسين لهذا العلم، ويعد كتاباه: (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) من أهم الكتب التي ألفت في هذا المجال، وقد أفهما الجرجاني لبيان إعجاز القرآن الكريم وفضله على النصوص الأخرى من شعر ونثر، وقد قيل عنه: كان ورعاً قانعاً، عالماً، ذا نسك ودين .

يقول عنه صاحب الطراز: "وأول من أسس من هذا العلم قواعده ، وأوضح براهينه، وأظهر فوائده، ورتب أفانينه، الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجاني ، فلقد فك قيد الغرائب بالتقيد، وهد سور المشكلات بالتسوير المشيد، وفتح أزهاره من أكمامها، وفتح أزواره بعد استغلاقها واستبهاها، فجزاه الله عن الإسلام أفضل الجزاء وجعل نصيبه من ثوابه أوفر النصيب والإجزاء".^(٢)

ولقد كان للجرجاني آراء علمية اشتهر بها، وعرفت عنه، فمن ذلك آراؤه في إعجاز القرآن الكريم، ومخالفته لمن زعم أن إعجاز القرآن، إنما هو "بالصرفة"، أي أن الله صرف العرب عن مضاهاة القرآن، فقد دفع هذا الرأي ورفضه ، وألح على

(١) ينظر: إنباه الرواة ٢/١٨٩

(٢) الطراز ليحيى بن حمزة العلوي ٤/١

تبيان فسادها في مؤلفاته عن الإعجاز، معتبراً أن إعجاز القرآن ليس "بالصرفة"، وإنما هو في فصاحته وبلاغته .

ويرى الجرجاني أن الفصاحة والبلاغة، هما مصدر الإعجاز في القرآن، وذلك عن طريق النظم، إذ إن نظم القرآن وتأليفه، هما مصدر الإعجاز فيه، ويقول الجرجاني: "إذا بطل الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عدناه.. لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف. (١)

ووقف عبد القاهر الجرجاني ضد الذين قدموا اللفظ على المعنى، فكان يرى أن الصورة المجتمعة من اللفظ والمعنى هي موطن الفضيحة وأساس الإجابة، ويشبهها بعملية الصياغة، ويعتبر أن النظم والتأليف هما الإعجاز في الكلام، وقد وضح الجرجاني الصورة التي امتزج فيها اللفظ بالمعنى فقال: "واعلم أن قولنا الصورة، إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بقولنا على الذي نراه بأبصارنا". (٢)

وكان من الآراء التي تناولها المعنى ومعنى المعنى، وأراد به تنوع الدلالات وتفاوتها الناجم عن طريق الصياغة. فالمعنى: هو المفهوم الظاهر في اللفظ. أما معنى المعنى، فمرحلة تتجاوز المعنى الظاهر، إلى المعاني العميقة المتمثلة بالكناية والاستعارة.

وقد لقيت آثار وآراء الجرجاني قبولاً فيمن بعده، فقاموا على دراستها وشرحها وتلخيصها ومناقشتها، فابن السيد البطليوسي شرح كتاب الجمل للجرجاني، وكذلك صنع ابن الخشاب البغدادي والبلنسي وغيرهما، واختصر الرازي كتاب (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) في مختصر أسماه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)، كما كان الدلائل والأسرار مورداً نهل منه السكاكي في (المفتاح) والقزويني في

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٧٥، تحقيق: محمد الداية وفايز الداية، دار الفكر، ط ١، ١٤٢٨هـ .

(٢) ص ٤٦٥.

(الإيضاح)، وما زال الدارسون - إلى عصرنا هذا - يردون من معين آثار الجرجاني، وينهلون من رصابه.
توفي شيخ البلاغيين (عبد القاهر الجرجاني) سنة ٤٧١هـ، وقيل سنة ٤٧٤هـ^(١)، بعد أن ترك ثروة علمية وأدبية يغترف منها طالب المعرفة ومحِب العلم.

(١) ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي ١٠٦/٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٩هـ.

٢. التعريف بكتاب دلائل الإعجاز

كتاب دلائل الإعجاز كتاب في البلاغة والنقد الأدبي، وهو وإن لم يكن كتاباً نحويًا، إلا أن فيه روح النحو ومقاصده في نظم الكلام وقواعد التركيب، وفقًا للمعاني المختلفة، التي تختلف باختلاف أحوال المتكلم والناظم.

وترجع أهمية كتاب دلائل الإعجاز إلى أنه آخر مصنفات عبد القاهر، فقد ألفه في أواخر حياته^(١)، وأودع فيه خلاصة معارفه وعلومه، وتجربته الممتدة في الدرس والتعليم، واستمد الكتاب أهميته كذلك من موضوعه الذي أقيم لأجله، وبنيت أبوابه ومباحثه في إثبات إعجاز القرآن الكريم ببلاغته الفريدة وفصاحته البيّنة، والرد على من زعم أن إعجاز القرآن الكريم إنما كان بالصرفة، التي قضاها الله على العرب حين صرفهم عن الإتيان بمثله.

قسّم المؤلف كتابه إلى ثلاثين فصلاً، فبعد المقدمة التي تحدث فيها عن المدخل إلى إعجاز القرآن. توالت فصول الكتاب ومباحثه النفيسة، وجاء من أبرز فصوله الكلام على من زهد في رواية الشعر وحفظه وذمّ الاشتغال بعلمه وتتبعه، و الفرق بين الحروف المنظومة والكلام المنظوم، ومعنى النظم، و الكناية والاستعارة والمجاز والحقيقة، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، وماهية البلاغة وصلتها بالإعجاز، والذوق والمعرفة، والكناية وشواهداها، و التوكيد وعلاماته، والمحاكاة والنظم، وتحليل اللفظ والمعنى، والاستعارة والمعنى، ومعاني النحو، واللفظ والاستعارة، والألفاظ المفردة. هذا إلى جانب فصول خصصها المؤلف لنكتة معينة في بعض الأدوات والأسماء مثل (إنما)، و(الذي)، و(ما)، و(إلا).

وأهم قضايا (دلائل الإعجاز) إثبات المزية والوصف الذي كان به الإعجاز في القرآن الكريم، وهو الفصاحة والبلاغة والبيان، وأن هذه المزية والفصاحة ليست

(١) ينظر مقدمة المحقق، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي

إلا حسن الدلالة وتمامها في صورة رائعة من النظم، وذلك بجريانه من الجهة التي هي أصح، واختياره اللفظ الذي هو أخص، وأنه لا فضل للفظ على الأخرى إلا بقوة دلالتها على الغرض المقصود، وذلك راجع إلى النظم.

والنظم من القضايا التي اتسع الحديث والإبانة له، وعن صلته الوثيقة بالمعنى، وهو موضع الفصاحة ومكانها، وعلاقة النظم بمعاني النحو ووجوهه، وصلة بين النحو والبيان، وأن الإعجاز لم يكن إلا في النظم، وهو توخي معاني النحو وأحكامه، وهو متصل بالمعنى اتصالاً وثيقاً، فليست الفضيلة فيه من حيث هو لفظ وحروف، ولكن من حيث هو نظم وتأليف، وفي معناه من حيث هو نظم تابع للمعاني ومقتفٍ أثرها ودال عليها.

والنظم في دلائل الإعجاز " تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"^(١)، أو هو " توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم"^(٢) ونظم الكلام هو ما يُقتفى فيه آثار المعاني، فليس الغرض بنظم الكلام أن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل. ومن مباحث الكتاب علم البيان، الذي به يعرف الإعجاز، ولا يقصد من علم "البيان" معناه الاصطلاحي المعروف عند علماء البلاغة، وإنما هو المعرفة بأصول الأداء اللغوي البياني عند العرب.

وتناول الكتاب فضيلة الشعر، وخطل من يزهد فيه ويصرف عنه وينفر منه، وجاء في الكتاب بيان أهمية النحو وخطأ من يزهد فيه، وعن خطأ من يزهد في العلم بمعاني البيان والفصاحة والبلاغة، إذ لا بد لكل كلام يستحسنه الإنسان من أن يكون لاستحسانه إياه سبب معروف وجهة معلومة.

(١) ص ٤٢٨.

(٢) ص ٤٤٥.

وتناول الكتاب البحث في معنى البلاغة والفصاحة والبيان، وأن الفصاحة لا تكمن في فصاحة الكلمة المفردة. وعرض الكتاب لأوجه البيان والفصاحة الكامنة في المعاني والدلالات البلاغية كالمجاز والكناية، والاستعارة والتمثيل، وتناول الكتاب بلاغة النظم في التقديم والتأخير والفصل والوصل والتعريف والتنكير والاستفهام والقصر وغير ذلك.

وجاء في الكتاب الحديث عن المجاز العقلي وبلاغته، وشرح أسرار النظم في الكتاب.

٣. السياق (مفهومه وأنواعه)

ظهرت نظرية السياق في العصر الحديث كواحدة من النظريات الدلالية التي عُتبت بالعلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى، وحظيت هذه النظرية بالاهتمام والدرس اللغوي لنتائجها الملموسة في استكشاف المعنى والوصول إليه من خلال إطارات عامة للنص، كما تميزت النظرية بالاستقصاء والشمول في البحث الدلالي، أمكنها ذلك من الموازنة والانتخاب لدلالة اللفظ، وسنتناول في هذا التمهيد بيان أهم ملامح نظرية السياق من حيث مفهومها، وأهميتها، وأنواعها، ليكون ذلك توطئة لدراسة السياق من خلال كتاب " دلائل الإعجاز " .

أ - مفهوم السياق:

جاء لفظ السياق في اللغة بمعانٍ متقاربة هي التتابع، والسير والانتظام في نسق واحد، ففي الجمهرة لابن دريد " السوق مصدر سقت البعير أسوقه سوقاً، .. والسوق معروفة، تؤنث وتذكر وأصل اشتقاقها من سَوَّقَ الناس إليه بضائعهم"^(١) وعند ابن فارس: " السين والواو والقاف أصل واحد وهو حدو الشيء يقال ساقه يسوقه سوقاً، والسيقة ما استيق من الدواب"^(٢).

وقال الزمخشري : " ساق النعم فانسقت، .. ومن المجاز: ساق الله إليك خيراً، .. وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يساق الحديث، وهذا الكلام مساقه إلى كذا، أو جئتكَ بالحديث على سوقه : على سرده، وسيق الكلام تتابعه ، وتواليه، وأسلوبه الذي يجري فيه " .^(٣)

(١) ص ٨٥٣/٢، تحقيق: رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين ، ط ١ ، ١٩٨٧م

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ٣/١١٧ .

(٣) أساس البلاغة ١/٤٨٤، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م

وفي اللسان: "انسأقت الإبل وتسأوقت إذا تتابعت، وكذلك تقأودت..، ويقال: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة، أي بعضهم إثر بعض، ليس بينهم جارية.. ورأيت فلاناً بالسوق، أي: بالموت، يساق سوقاً، وإن نفسه لتساق أي في النزع كأنّ روحه تُساق لتخرج من بدنه.. وجاءت سويقة: أي تجارة وهي تصغير السوق، سميت بها لأن التجارة تُجلب إليها، وتساق المبيعات نحوها"^(١).
فالمعنى اللغوي يشير إلى دلالة التتابع والتوالي وجميع المعاني الحسية السابقة تقترب من معنى السياق اصطلاحاً، والزمخشري - كما سبق - يقترب كثيراً من المعنى المقصود حين تناول الاستعمال المجازي للسياق. فسياق الكلمات يراد به تتابعها، وسردها في الجملة.

ويراد بنظرية السياق المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية سواء أكانت كلمة أم جملة في إطار من العناصر اللغوية أو غير اللغوية. أو هو النص الآخر، أو النص المصاحب للنص الظاهر، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية^(٢).

والسياق يعني بدراسة المعنى بكل المستويات اللغوية والوسائل غير اللغوية للكشف عن الدلالة ووضوحها وإزالة الغموض أو اللبس.

والسياق إطار عام تنتظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية، والذي يعين قيمة الكلمة في كل الحالات هو السياق، إذ ينتخب السياق دلالة واحدة بعينها، على

(١) ص ٤٣٤/٦، دار إحياء التراث، ط ٣، ١٩٩١هـ

(٢) ينظر: دلالة السياق، ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، ص ٥١، رسالة دكتوراه،

جامعة أم القرى ١٤١٨هـ

الرغم من تعدد المعاني، إذ الكلمة - عند السياقيين - لا معنى لها خارج السياق، وليس المعنى إلا وظيفة في سياق^(١).

ب - أنواع السياق:

يرتبط السياق بالمعنى ارتباطاً وثيقاً، ذلك أن السياق يعنى بدراسة المعنى بكل المستويات اللغوية والوسائل غير اللغوية للكشف عن الدلالة ووضوحها وإزالة الغموض واللبس عن المعنى.

ولا يقتصر السياق على رفع الغموض عن المعنى المعجمي فحسب؛ بل يسهم في الكشف عن كثير من الظواهر اللغوية كالمشترك اللفظي، والمترادف، وجانب من الدلالات الصرفية والنحوية والتي تحول دون إدراك المعنى ووضوحه.

إن معنى الكلمة يتحدد في استعمالها داخل سياق لغوي، والكلمة خارجه يتعدد مدلولها، وهذا ما أشار إليه الجرجاني في قوله: "إن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد"^(٢).

والمفردة اللغوية ذات دلالات متنوعة، تفرضها جوانب لغوية، وأخرى حالية، وعلى إثر ذلك تعدد مفهوم المعنى للفظ الواحد ليتخذ أنواعاً مختلفة، أهمها^(٣):

١- المعنى الأساسي أو الأولي أو المركزي: ويسمى المعنى التصوري أو المفهومي أو الإدراكي، وهو المعنى المتصل بالوحدة المعجمية حينما ترد في أقل سياق، وهو أساس التواصل والتفاهم ونقل الأفكار.

(١) ينظر: النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، لمحمد حماسة عبد اللطيف،

ص ٣٣، ٣٦، دار الشروق ط ١، ١٤٢٠هـ

(٢) ينظر: دلالات الإعجاز، ص ٣٥٣

(٣) ينظر: علم اللغة، أحمد مختار عمر ص ٢٦

٢- المعنى الإضافي أو التضمني: وهو المعنى الذي يملكه اللفظ عن طريق ما يشير إليه إلى جانب معناه التصوري الخالص، ويخضع هذا المعنى لتغير عامل الزمن أو الثقافة.

٣- المعنى الأسلوبي: وهو المعنى الذي تحمله قطعة من اللغة بالنسبة للظروف الاجتماعية لمستعملها والمنطقة الجغرافية التي ينتمي إليها، ويكشف هذا المعنى عن مستويات أخرى كثقافة المتكلم ورتبته ومستوى اللغة المتحدّث بها.

٤- المعنى النفسي: وهو المعنى الخاص الذي يتضمنه اللفظ عند الفرد، وهو معنى ذاتي فردي يرتبط بتجربة أو خبرة سابقة، تستثار بذكر لفظ معين.

٥- المعنى الإيحائي: وهو المعنى المرتبط بكلمات معينة لها القدرة على الإيحاء، ويظهر ذلك مثلاً في أسماء الأصوات.

ولا تكفي المعاجم في تحديد المعنى، إذ ثمة عوامل تتدخل في تحديد المعنى، ومنها تركيب الجملة، وما يحيط بها من ظروف وملابسات، وما بين المتكلم والمتلقي من علاقة، بالإضافة إلى اختلاف البيئات، والمستوى الثقافي وغير ذلك.

ودراسة المعنى وفق هذه نظرية السياق يتطلّب تحليلاً للسياقات والمواقف التي يرد فيها، سواء ما كان منها لغوياً أو غير لغوي، ولذا فقد قُسم السياق إلى^(١):

١- السياق اللغوي: وهو ما يكون الإطار اللغوي هو المحدد للمعنى.

٢- السياق العاطفي: وهو ما تحمله بعض الكلمات من معانٍ.

٣- سياق الموقف: وهو المعنى المرتبط بالموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة.

٤- السياق الثقافي: وترتبط فيه الدلالة والمعنى بالمحيط الثقافي الذي يمكن أن تستعمل فيه الكلمة.

(١) ينظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص ٦٩

والمقام له دور واضح في الكشف عن المعنى الدلالي، إذ الوقوف على الوظيفة الصوتية والصرفية والنحوية، وحتى المعجمية للكلمة - في سياق معين - لا يمكن أن يكشف - دائما - عن المعنى الدلالي الكامل بعيدا عن السياق. وتبرز أهمية السياق في أن دراسة المفردات اللغوية مستقلة عن المسافات النفسية والحضارية التي كانت تحيط بالنص يؤدي إلى استقصاء ناقص للمدلولات، فالجانب النفسي والثقافي جانب مهم لبلوغ غاية ودلالة اللفظ ، وبدونه تتحول المفردات إلى علامات إشارية فاقدة لكل معنى رمزي.

إن الاهتمام بالخطاب التداولي من خلال العلاقات المطردة الموجودة بين بنيات النص والسياق ينطلق من الكشف عن خصائص الخطاب التي تحدد بواسطة بنية المتداولين للغة والمستعملين لها، وبواسطة ضروب إنجاز قوى فعل الكلام، وتناول المعلومات، ولا شك أن العلاقات بين القضايا والجمل لا يمكن على وجه الاستغراق أن توصف في حدود سيميائية فقط^(١).

المبحث الأول

(١) ينظر: النص والسياق فان دايك، ترجمة عبد القادر قنيني، ص ٢٧٥، أفريقيا الشرق

السياق اللغوي

السياق اللغوي :

ويراد به العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بين الكلمات على مستوى التركيب، أو هو العلاقة التي تربط الكلمة بما قبلها وما بعدها، ويعرفه " أولمان " بـ " النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم". (١)

ويدور السياق في التراث العربي حول بعض المعاني كالغرض، والظروف والمواقف والأحداث التي ورد فيها النص ، أو ما يعرف بالسياق اللغوي الذي يمثله الكلام في موضع النظر والتحليل. (٢)

واللفظ هو صورة المعنى الظاهرة، والمعنى مستكن خلف لفظه، ومهما بلغ اللفظ من الفصاحة فلن يحذو المعنى أو يطابقه، وإنما الألفاظ دلائل على المعنى قد تقرب منه، أو تبعد عنه، ومما ينسب لأبي سعيد السيرافي عن اللفظ قوله: " لا يحوز مبسوط العقل.. وليس في قوة اللفظ من أية لغة أن يملك ذلك المبسوط ويحيط به، وينصب عليه سورا ولا يدع شيئاً من داخله أن يخرج، ولا شيئاً من خارجه أن يدخل" (٣).

وقد وضع ابن جني للغة حدًا، بأنها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (٤)، وهذا الوصف يحدد العلاقة بين اللفظ (الأصوات) والمعنى (الأغراض)

(١) دور الكلمة في اللغة، ترجمة د. كمال بشر، ص ٥٥. مكتبة الشباب.

(٢) ينظر: دلالة السياق لردة الله الطلحي ص ٥٠

(٣) نسبها إليه أبو حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة، صححه أحمد أمين وأحمد الزين، ١٢٦/١، دار مكتبة الحياة.

(٤) الخصائص ١/٣٣٠

والذين يخضعان لسنن وأصول محددة في كل لغة (كل قوم)، وبهذا يكون الارتباط بين اللفظ والمعنى مشروط بشروط الصياغة النحوية.

ويشرح ابن سيده ما أجمله ابن جني حين قال: "إن الله عز وجل لما كرم هذا النوع الموسوم بالإنسان..، وجعل له رسماً يميّزه، وفضلاً يبينه على جميع الأنواع فيحوزه، أحوجه إلى الكشف عما يتصور في النفوس، بضروب من اللفظ المحسوس، ليكون رسماً لما تصوّر وهجس من ذلك في النفوس، فعلمنا بذلك أن اللغة اضطرارية، وإن كانت موضوعاتها اختيارية، فإن الواضع المسمي للأقل جزءاً، ولأكثر كلاً..، لو قلب هذه التسمية، فسُمى الجزء كلاً والكلّ جزءاً لم يخل بموضوع، ولا أوحش اسماعنا من مسموع، ونحن مع ذلك لا نجد بدءاً من تسمية جميع الأشياء لتحتاز بأسمائها، وينماز بعضها عن بعض، بأجراسها، وأصدائها، كما تباينت أول وهلة بطباعها، وتخالفت قبل ذلك بصورها وأوضاعها"^(١).

والدرس اللغوي الحديث وفق نظرية السياق يتجه إلى البحث عن دلالة الكلمة من خلال التركيب والسياق، ذلك أن ارتباط الكلمة مع غيرها يمنحها قيمة تعبيرية جديدة، ويفرض عليها قيماً دلالية منتخبة في جملة الدلالات الممكنة للفظ، وبهذا فالكلمات ليس لها معانٍ محددة، وإنما لها استعمالات، ولهذا يؤكد الداليون ضرورة البحث عن دلالة الكلمة داخل السياق؛ لأن معنى الكلمة هو مجمل السياقات التي يمكن أن تنتمي إليها.^(٢)

ففي دراسة فنديس للسياق أوضح أهميته في بعض ظواهر اللغة كالمشترك اللفظي، إذ يمنع السياق تعدد المعاني، فهو عامل حاسم للمعنى المراد، إذ إن الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جوّ يحدد معناها تحديداً مؤقتاً، والسياق

(١) المخصص، المقدمة ص ٢

(٢) ينظر: علم الدلالة التطبيقي، هادي نمر، ص ١٩٣.

هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي بوسعها أن تدلّ عليها. (١)

ويرى سوسير أن اللفظة وسط السلسلة التعبيرية يزول وضعها العشوائي، وتتحول إلى شكل انتخابي، والتراكيب اللغوية قائمة على " التنظيم " وكل تركيب لن يعطي ثمرته كاملة إلا مع تراكيب أخرى تضيف عليه دلالات أخرى. (٢)

إن الاطلاع على العلاقات التركيبية مرحلة من مراحل استكناه المنجز اللغوي، وتفسير دلالاته اللفظية والتركيبية، وهو جزء من مفهوم نظرية السياق التي تدرس في أحد جانبيها أثر السياق اللغوي في إبراز وإظهار دلالة النص والمعاني المنبثقة منه، وإنه قبل الشروع في تناول هذا المبحث، والنظر في خزانة " دلالات الإعجاز "، وما احتوته من آراء وقواعد تتقاطع مع هذه النظرية يجدر بنا الوقوف عند قضية دلالية أوردها الجرجاني وتشكل لبنة قامت عليها نظرية السياق، ألا وهي قضية اللفظ والمعنى، والجدل القائم حول علاقة اللفظ بالمعنى، وهل ثمة ارتباط طبيعي أو سببي بينهما، أو أن العلاقة لا تعدو أن تكون مواضعة أو (اعتباطاً)، وقد تناول الجرجاني النظر في هذه العلاقة، وهاداه فكره إلى أن علاقة الدال بالمدلول ليست علاقة ثنائية كما هو ظاهرها، فقدّم وصفاً دقيقاً لتلك العلاقة حين أوضح أنها ترتكز على ثلاثة أركان، هي الدال والمدلول والصورة الذهنية المتصورة، وهذه الركائز نستنبطها من قوله: " ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم هو كثير رماد القدر وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة لم تعرف ذلك من اللفظ ولكنك عرفتته بأن رجعت إلى نفسك فقلت إنه كلام قد جاء عنهم في المدح ولا معنى للمدح بكثرة الرماد فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على أنه تنصب

(١) ينظر: اللغة، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، ص ٢٣١.

(٢) ينظر: اللغة والفكر، ص ١٦٩.

له القدور الكثيرة ويطبخ فيها للقرى والضيافة وذلك لأنه إذا كثر الطبخ في القدور كثر إحراق الحطب تحتها وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة^(١).

ويدلل الجرجاني على ما ذهب إليه بقوله: "واعلم أن قولنا الصورة إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي تراه أبصارنا، فلما رأينا البيئونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة، فكان بين إنسان من إنسان، وفرس من فرس، بخصوصية تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك"^(٢).

فالكلمة تشير في العقل صورة ذهنية تشير إلى ماهية خارجية، وهذا يعني اختلاف المتصور في الذهن عن الصورة الخارجية باختلاف المتصور ذاته، واختلاف أفراد المتصور كذلك، هذا بالإضافة إلى أن المعنى قد يكون من المفهومات والمعقولات التي لا تمثل لها في الخارج، ولذا فسيكون السياق نشطا في رسم الدلالة وتقريبها.

وهذا الثالث في قضية الدال والمدلول هي ذات ما قدمه ستيفن أولمن حين جعل العلاقة قائمة بين المعنى واللفظ والشيء في العالم الخارجي، أو هي العلاقة بين المشار إليه والصيغة والصورة الذهنية كما يراها أوكدن وريتشارد، واشتهرت هذه العلاقة الثلاثية بأسمائهم^(٣)، في حين أن الجرجاني^(٤) - كما سبق - قد أبان عن هذه العلاقة وأوضح معالمها قبل ما يقرب من ثمانية قرون.

(١) ص ٤٠٣

(٢) ص ٤٦٥

(٣) ينظر: مدخل إلى علم اللغة، محمود حجازي ص ١٤١، دار قباء. وعلم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، هادي نمر ص ١٦٨، دار الأمل، ط ١، ١٤٢٧هـ

(٤) يرى بعض الباحثين أن هذا التصور للعلاقة بين اللفظ والمعنى قد سبق إليه الجرجاني، ف جاء عند الفارابي (٣٢٩هـ)، وابن سينا (٤٢٨هـ)، ينظر: علم الدلالة التطبيقي ص ١٦٩، ١٧٠.

ويشمل السياق اللغوي من المجالات الدلالية سياقين هما السياق الصوتي والسياق النحوي^(١)، إذ يجتمع هذان السياقان كمُعطين دلاليين يتم بحثهما في كل سياق لغوي.

فأول دلالة لغوية هي السياق الصوتي ويقع في مُقدّم هذه المعطيات، بدءاً من أصغر وحدة لغوية "الفونيم" وما تحيط به من صفات مختلفة، فترتيب الفونيمات في الكلمة وموقعها في البنية أساس الدلالة اللغوية للكلمة.

ومن الظواهر الصوتية الدلالية النبر، وهو ازدياد وضوح جزء من أجزاء الكلمة في السمع عن بقية أجزائها، وهو عامل صوتي دلالي، ويقوم بدور مهم في تحديد المعنى اللغوي وتأكيده. وكذلك التنغيم، وهو ارتفاع الصوت وانخفاضه في أثناء الكلام لغرض دلالي، وربما تعددت الدلالات وفقاً لتنغيم خاص في جملة واحدة.

وأبان الجرجاني عن أثر الدلالة الصوتية في البيان والفصاحة من خلال أثر الجرس الصوتي في تحقيق الدلالة فذكر أن " كل من عرف أوضاع لغة من اللغات عربية كانت أو فارسية وعرف المغزى من كل لفظة ثم ساعده اللسان على النطق بها وعلى تأدية أجزائها وحروفها فهو بين في تلك اللغة كامل الأداة بالغ من البيان المبلغ الذي لا مزيد عليه منته إلى الغاية التي لا مذهب بعدها"^(٢)

أما الدلالة النحوية في السياق فهي دلالة تنتج من خلال العلاقات النحوية بين الكلمات، وما يكون بينها من تأثير وتأثير، حيث تتخذ كلُّ منها وظيفة خاصة في الجملة، و تكشف الوظيفة النحوية ما اكتسبته الكلمة من سمة اجتماعية أو

(١) ينظر: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، دراسة لغوية نحوية دلالية، د. عبد النعيم خليل

ص ٣٨ وما بعدها

(٢) ص ٦٤

فكرية عندما تحلّ في موقع معيّن في التركيب الإسنادي وعلاقاته الوظيفية كالفاعلية، والمفعولية، والحالية، والنعتية، والإضافة، والتمييز، والظرفية. (١)

ويمكن الكشف عن دور السياق النحوي فيما ذكره ابن جني عند تعريفه للإعراب بأنه " الإبانة عن المعاني بالألفاظ ، ألا ترى أنك إذا سمعت : أكرم سعيداً أباه، وشكر سعيداً أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر، الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرجاً واحداً لاستبّهم أحدهما من صاحبه" (٢)، وبهذا يكون دور السياق النحوي ذا أثر بالغ في إعراب الكلام والإفصاح عنه، وأتى عند الجرجاني قوله في وصف منزلة الإعراب: " الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها.. " (٣)

والسياق النحوي لا تقتصر وظيفته في دراسة أحوال أواخر الكلم يل يشمل دراسة الجملة من خلال العلاقات السياقية بين الكلمات. فلكل لغة نظم تحكمها مجموعة من القواعد، وتنظّم العلاقة بين الكلمات على مستوى التركيب، وتقوم على ثلاث اتجاهات، أولها دراسة القواعد المنظمة لترتيب الكلمات في الجملة: سواء كانت اسمية أو فعلية، من حيث التقديم والتأخير والزيادة والحذف، وثانيها دراسة ما يسمّى بالتوافق والمخالفة بين الكلمات في الجملة كدراسة العلاقة بين المبتدأ والخبر، وبين الصفة والموصوف، فكل سياق يقوم على علاقات متبادلة بين عناصره، وتظهر هذه العلاقة في التوافق بين عنصر أو أكثر كالأفراد والتثنائية والجمع، والتذكير والتأنيث، والإعراب، وأسلوب المتكلم والمخاطب والغائب، والثالث دراسة الظواهر الإعرابية من حيث الإعراب والبناء، وذلك وفقاً للسياق النحوي

(١) ينظر: علم الدلالة، فايز الداية ص ٢١ .

(٢) الخصائص ٣٥/١

(٣) دلائل الإعجاز ص ٨٢ .

للنص، وعند تغيير السياق قد يطرأ تغيير في الإعراب، وعليه فإن الحكم على الكلمة - رفعا ونصبا وجرا وجزما - يكون بالنظر إلى موضعها في السياق.^(١)

وبناء على ذلك فإن النحو يبحث في التركيب وما يرتبط به من خواص، والارتباط الداخلي بين الوحدات المكونة للجملة، ولقد كان عبد القاهر الجرجاني موفقا إلى حد بعيد حين أدرك بحسه الثاقب هذا المفهوم النحوي الحديث حيث يقول: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت، فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت، فلا تخلّ بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروعه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيدٌ منطلقٌ، وزيدٌ ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق، وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارجٌ، وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاعني زيد مسرعا، وجاعني يسرع، وجاعني وهو مسرع، أو هو يسرع، وجاعني قد أسرع، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له"^(٢).

وسياق اللغة يفضي إلى دراسة التركيب النحوي والكشف عن أنماطه المتنوعة وأثر تلك الأنماط في الدلالة، داخل السياق اللغوي، فمن التراكيب النحوية التركيب الإضافي، والتركيب عن طريق الوصف لإفادة التخصيص، والتركيب الإسنادي وتعد علاقة الإسناد قرينة معنوية لتمييز المسند إليه من المسند، والإسناد

(١) ينظر: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، لعبد النعيم خليل ص ٧١

(٢) دلائل الإعجاز، ص ٦٤.

في اللغة العربية سمة لا تكاد توجد في غيرها من اللغات، وهي عملية عقلية تتمكن من خلالها استيضاح هذه العلاقة.^(١)

ولا يمكن بحال أن يدرس السياق اللغوي دون النظر إلى قواعد التركيب النحوي ورسومه الثابتة، لما له من علاقة التأثير والتأثير في دلالة السياق، ولذا فعندما عاب الجرجاني على الزاهدين في الشعر صنيعهم أعقب ذلك بدم من زهد بالنحو فقال: " وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له وإصغارهم أمره وتهاونهم به فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم وأشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله وعن معرفة معانيه ذاك لأنهم لا يجدون بدا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه."^(٢)

وقد رسم الجرجاني قواعد التركيب من خلال العلاقات الدلالية بين الوحدات اللغوية، معولا على المعاني النحوية التي تنتج " تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، وهذه العلائق بين بنى التركيب استوفت أبواب النحو، ولملمت أطرافه واستوعبت أركانها، وقد اتجه في ذلك إلى وصف التراكيب من خلال التعليق بين أفراد التركيب، والتعليق بصورة الثلاث قد جمعت العلاقات القائمة بين الألفاظ والوظائف النحوية فيما بينها من خلال المعاني النحوية الدلالية.

والقصد إلى معاني النحو هو غاية التركيب ومنتهاه -عند الجرجاني- ، فليس التركيب ضمّ لفظة إلى أختها من غير اتصال يكون بين معنييهما؛ " لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل ضحك خرج أن يحدث من ضم خرج إلى ضحك فصاحة وإذا بطل ذلك لم يبق إلا أن

(١) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص ١٩٣

(٢) ص ٨٢

يكون المعنى في ضم الكلمة إلى الكلمة توحي معنى من معاني النحو فيما بينهما".
(١)

ومعيار الفصاحة قد استطرده الجرجاني في تأكيده وإعادة شرحه في مواضع كثيرة، مبينا أن الفصاحة تتحقق في سياق نصي لا مفردة لفظية، فقد صرح بأنه لا يوجب " الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكن نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلقا معناها بمعنى ما يليها"^(٢)، فالسياق العام هو الذي يحكم للفظة بالفصاحة أو بخلافها .

وعندما اتجه إلى الحديث عن إعجاز القرآن عزا ذلك إلى التركيب والنظم فقال: " أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها ومجاري ألفاظها ومواقعها وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام وتذكير وترغيب وترهيب ومع كل حجة وبرهان وصفة وتبيان".^(٣)

ويصور الجرجاني دور السياق في استجلاء دلالة اللفظ وبيانه بقوله " فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخبارا وأمرا ونهيا واستخبارا وتعجبا وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة".
(٤)

(١) ص ٣٧٧

(٢) ص ٣٨٢

(٣) ص ٩٠

(٤) ص ٩٣

ولتأكيد أثر السياق على اللفظ يدلل الجرجاني على أن اللفظة في السياق لا تكون الفضيلة والحسن فيها مطلقاً، فربما زهت في موضع واستقبحت في آخر، ويبين ذلك بقوله: " إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر ، كلفظ الأخدع.. في بيت البحري^(١):

وإني وإن بلغتني شرف الغنى وأعتقت من رِق المطامع أخدعي

فإن له في هذا المكان ما لا يخفى من الحسن ثم إنك تتأمله في بيت أبي تمام^(٢):

يا دهر قَوْمٌ مَنْ أَخْدَعِكَ فَقَدْ أَضَجَّتْ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ خُرْقِكَ

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت

هناك من الروح والخفة والإيناس والبهجة"^(٣).

والجرجاني ينفي في عملية إنشاء الكلام ، أن يكون تحديد اللفظ منفصلاً

عن تحديد موقع ذلك اللفظ ، وينفي أيضاً أن يكون ترتيب الكلام منفصلاً عن

الترتيب الذي قامت عليه معانيه ، بل إن عملية إنشاء الكلام نفسه تتم بفعل إنشاء

ترتيب المعاني نفسها بحيث لا يحتاج ذلك الكلام الى قصد منفصل عن القصد الذي

يحتاجه إنشاء المعاني، ومن هنا فلا فصل بين نسق الألفاظ و نسق المعاني.

(١) ديوانه ١٢٤١/٢. تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف. ورواية الديوان: "وأعتقت

من ذل المطامع" بدل: رِق، والأخدع: واحد الأخدعين، وهما عرقان في صفحتي العنق.

(٢) ديوانه ٤٠٥/٢، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف. الأخدعان: عرقان في ظاهر العنق.

والخُرُق: الحماقات.

(٣) ص ٩٤، ٩٥

ولقد أبان الجرجاني عن هذه المسألة، وأوضح أنّ الكلم يترتب في النطق بسبب ترتيب معانيها في النفس، وهذا ما عرف بترتيب المعاني مع الألفاظ، ولما كانت المعاني لا تبيّن إلا بالألفاظ وكان لا سبيل لها إلا بترتيب الألفاظ، فكفوا عن ترتيب المعاني بترتيب الألفاظ، حتى قالوا: " لفظ متمكن غير قلق ولا ناب به موضعه ". (١)

ولهذا فإن: " اللفظ تبعٌ للمعنى في النظم، وإنّ الكلم تترتب في النطق بسبب ترتيب معانيها في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداء حروف، لما وقع في ضمير، ولا هجس في خاطر، أن يجب فيها ترتيب ونظم " (٢).

إن عملية تنظيم المعنى تنسحب لزاماً على ترتيب اللفظ في تقديم وتأخير، فليستا عمليتين منفصلتين أو مختلفتين في النظم والدلالة، بل هما متماهيتان منسجمتان في المنجز اللغوي.

ولو لم يكن للمعنى ترتيب وتنظيم لما استحقت الألفاظ ترتيباً، إذ إن وضع الألفاظ مجردة من المعاني لا معنى لترتيبها على وجه خاص، ويوضح الجرجاني هذه المسألة ويزيدها تقريراً وتأكيداً بقوله: " إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بعلم أنّها خدمٌ للمعاني وتابعة لها، ولاحقة بها، وأنّ العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق ". (٣)

(١) ص ٤٤٠.

(٢) ص ١٠٢.

(٣) ص ١٠٠.

ودلالة السياق لا تتوافر في ألفاظه مفردةً، فقد أشار الجرجاني إلى ذلك حين ذكر أن " الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد وهذا علم شريف وأصل عظيم والدليل على ذلك أنا إن زعمنا أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنما وضعت ليُعرف بها معانيها في أنفسها لأدى ذلك إلى ما لا يشك عاقل في استحالته". (١)

وفي تشبيهه دقيق ذكره الجرجاني في أثر التركيب على الدلالة أن " مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة، فيذيب بعضها في بعض، حتى تصير قطعة واحدة، وذلك أنك إذا قلت: ضرب زيد عمراً يوم الجمعة ضرباً شديداً تأديباً له، فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم كلها على مفهوم، هو معنى واحد، لا عدة معان، كما يتوهمه الناس، وذلك لأنك لم تأت بهذه الكلم لتفيده أنفس معانيها، وإنما جئت بها لتفيده وجوه التعلق التي بين الفعل .. وبين ما عمل فيه، والأحكام التي هي محصول التعلق" (٢).

فاللغة كما يصورها الجرجاني ليست مجموعة من الألفاظ، بل هي مجموعة من العلاقات والروابط التي تولد خصائص لم تكن في أجزاء النص، وإذا كان الكلام يخضع لتفاعل أجزائه، فإنه سيشكل في مجمله سمات عامة تصطبغ بجميع أجزائه، غير أنه هذه السمات ليست في أجزائه.

وعلى هذا يختم الجرجاني نظريته لأثر التركيب في تفاضل معاني الألفاظ بأنك ترى " الرجلين قد استعملا كلما بأعيانها ثم ترى هذا قد فرع السماك، وترى ذاك قد لصق بالحضيض، فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا

(١) ص ٤٩١

(٢) ص ٣٩٠

استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها، وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم. لما اختلف بها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبداً، ولم تر قولاً يضرب على قائله حتى لا يدري كيف يعبر وكيف يورد ويصدر". (١)

ونظرية النظم التي قدمها الجرجاني وأفاض في الحديث عنها في مواضع عديدة تتكئ عليها نظرية السياق بمفهومها في الدرس الحديث ، وقد أوضح الجرجاني معنى النظم بأنه " تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض" (٢) ، والتعليق الذي يقصده الجرجاني أبان عنه بأن "تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخلّ بشيء منها " (٣) .

ويتقارب مفهوم النظم والسياق في ناتجهما الدلالي وغاياتهما، فالنظم هو تأليف الكلم في سياق محدد يقتضيه علم النحو ، فالكلم لا يأخذ موقعه في السياق عفواً، وإنما من خلال إقامة علاقات معنوية بينها وفق قواعد النحو وأصول التركيب، والسياق يقوم باستظهار هذه المعاني والكشف عنها في داخل النص، فكأن النظم يقوم بدور الإدخال والتقعيد لإنشاء النص وبنائه وفق قواعد محكمة ومنضبطة ليقوم السياق باستخراج هذه المعاني واستثمارها في فهم النص.

وحين قدّم الجرجاني نظرية النظم، جعل السياق اللغوي قائماً على الدلالة في صورة انعكاسية، بين إنشاء الخطاب وتفسيره، كالتقديم والتأخير ، ويبين ذلك بقوله: " فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون

(١) ص ٩٦

(٢) ص ٥٢

(٣) ص ١٢٢

مثله أولاً في النطق.. وإن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق" (١).

ونظرية النظم التي قدمها الجرجاني تنطلق من النظر في تعدد طرائق الإخبار والشرط، ووجوه الحال، فيضع كل ذلك في موضعه، وما ينبغي له، ثم ينظر إلى الحروف وما تقوم عليه من معنى، فيضع كل ذلك في خاص معناه، ثم ينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل وموضع الوصل، وبأي حرف يصل بينها، ثم يتصرف بالتعريف والتنكير والتقديم والتأخير، وينظر في الحذف والتكرار والإضمار، فيصيب المعنى في كل ذلك.

والإصابة في ذلك هو الإصابة لمعاني النحو، والفساد فيه إنما هو من الخطأ في إدراك معاني النحو وأحكامه. (٢)

وتظهر أهمية السياق اللغوي في أصول النظم وقواعده، وذلك حين أشار الجرجاني على أن دلالة التركيب قائمة على المعاني وإلى ما يُدُلُّ عليه بالألفاظ فإذا كان " النظم سويًا والتأليف مستقيماً، كان وصول المعنى إلى قلبك تلو وصول اللفظ إلى سمعك، وإذا كان على خلاف ما ينبغي، وصل اللفظ إلى السمع، وبقيت في المعنى تطلبه وتتعب فيه، وإذا أفرط الأمر في ذلك صار إلى التعقيد الذي قالوا: إنه يستهلك المعنى". (٣)

وتناول الجرجاني في دراسة النظم التراكيب النحوية وما يكون فيها من التقديم والتأخير والحذف والذكر والإظهار والإضمار، وفقاً للمعاني التي يريد

(١) ص ١٠٠

(٢) ينظر: ص ١٢٣، ١٢٤

(٣) ص ٢٧٥

المتكلم في كلامه من التأكيد أو الإخبار أو الاستفهام أو التعجب، وغيرها من المعاني.

والتركيب الذي تناوله في نظرية النظم قدمه بصورة دقيقة وغاية في الوضوح، وذلك حين جعل الكلم ثلاثة أقسام، اسم وفعل وحرف، ثم أوضح صور تعلقها مع بعضها البعض، فالأول تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما، وجعل الأخير أنواعا، أولها أن يتوسط الحرف بين اسم وفعل، والثاني أن يتوسط بين اسمين، والثالث أن يتعلق الحرف بمجموع الجملة، وضرب لذلك مثلا بحروف النفي والاستفهام والشرط، وهذه الصور جميعها تنتظم فيها معاني النحو وأحكامه.

ولم يكتف الجرجاني بهذا، بل أعقبه بأهمية إنشاء الكلام وفق قوانين النحو وأصوله، بلا زيغ أو ميل عن رسومها، معتمدا في ذلك النظر في وجوه الكلام، فينظر في وجوه الخبر وفروقه في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيدا، وزيد هو المنطلق.

وفي الشرط والجزاء إلى وجوهه في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج.

وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاعني زيد مسرعا، وجاعني يسرع، وجاعني وهو مسرع، أو وهو يسرع، وجاعني قد أسرع، وجاعني وقد أسرع.

وينظر في الحروف التي تشترك في معنى، فيفرد لكل واحدة منها بخصوصية، فيضع كلا منها في خاص معناه، نحو أن يجيء بـ (ما) في نفي الحال، وبـ (لا) إذا أراد نفي الاستقبال، وبـ (إن) فيما يترجح أن يكون أو لا يكون، وبـ (إذا) فيما علم أنه كائن.

كما أشار إلى الجمل والتراكيب وما يجري فيها من العلم بمواضع الفصل والوصل، وما حقه الوصل بـ(الواو) أو (الفاء) أو (ثم)، وموضع (أو) من موضع (أم)، وموضع (لكن) من موضع (بل).

كما أوضح الوجوه التي يتصرف فيها بالتعريف أو التنكير، والتقديم والتأخير، وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار، فيصيب كل ذلك في مكانه.^(١) وتشتمل قرينة التعليق على العلاقات السياقية، والقرائن اللفظية، فمن الأمور المهمة في التعليق النظر إلى " ظاهرة تظافر القرائن " لإيضاح المعنى الواحد. وذلك كإعراب " زيد " فاعلاً، في " ضرب زيدٌ عمرًا " بمجموعة من القرائن، منها: قرينة الصيغة لانتمائه إلى الاسمية، وقرينة العلامة الإعرابية لأنه مرفوع، وقرينة الإسناد لعلاقته بالفعل، وقرينة الرتبة لانتمائه إلى رتبة التأخر، وقرينة المطابقة وذلك لأنه اسمٌ ظاهر وفعله مسند إلى المفرد الغائب، وغيرها من القرائن.

وتعد علاقة الإسناد قرينة معنوية لتمييز المسند إليه من المسند، والإسناد في اللغة العربية سمة لا تكاد توجد في غيرها من اللغات، وهي عملية عقلية يتمكن من خلالها استيضاح هذه العلاقة.^(٢)

وما مضى من غايات النظم هي دور السياق الفاعل على المستوى التركيبي النحوي للجملة، فالسياق بمفهومه العام يرسم العلائق النحوية، ويرتب المفردات في الجملة. فثمة تفاعل بين عنصري (النحو) و(السياق) في تكوين النص بصورته النهائية، فالعنصر النحوي يمدنا بالمعنى الأساسي، والعنصر السياقي يمدنا

(١) ينظر ص ١٢٢ وما بعدها.

(٢) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص ١٩٣

بالمعاني الإضافية، وكثيرا ما يقوم السياق بالتأثير على قواعد التركيب بالذکر والحذف، أو التقديم والتأخير^(١).

ومن المعاني التي يكشفها السياق اللغوي ما يقع من تحول المعاني

النحوية وانتقالها، وذلك نحو ما أورده الجرجاني عند قوله تعالى: ﴿إِذَا أَخْرَجَ

يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِرْهَا﴾^(٢) وهي أن (لم يكد) في الآية واقع في جواب إذا،

والماضي إذا وقع في جواب الشرط على هذا السبيل كان مستقبلا في المعنى، فإذا

قلت: إذا خرجت لم أخرج. كنت قد نفيت خروجا فيما يستقبل، وإذا كان الأمر كذلك

استحال أن يكون المعنى في الآية على أن الفعل قد كان؛ لأنه يؤدي إلى أن يجيء

بلم أفعل ماضيا صريحا في جواب الشرط فتقول إذا خرجت لم أخرج أمس وذلك

محال^(٣)

والدلالة المجازية من الدلالات التي لا تظهر إلا في السياق، فلا تظهر

الدلالة المجازية في اللفظ مجردا من التركيب، وقد عرض الجرجاني لذلك حين

تناول بعض الدلالات المجازية، كقولهم (نهارك صائم) و (ليلك قائم)، وكما في

قوله تعالى: ﴿فَمَا رِبْحَتْ بِمَجْرَثُهُمْ﴾^(٤) فأوضح أنه لم يقع التجوز في نفس

صائم وقائم، ولكن "في أن أجرينتهما خبرين على النهار والليل، وكذلك ليس المجاز

في الآية في لفظة ربحت نفسها، ولكن في إسنادها إلى التجارة^(٥)، ويجلي

(١) ينظر: النحو والدلالة، محمد حماسة عبد اللطيف. ص ١١٣

(٢) النور: ٤٠.

(٣) ص ٢٨٠

(٤) البقرة: ١٦.

(٥) ص ٢٩٤

الجرجاني ذلك بأن اللفظ إذا كان له "معنى موجودا على الحقيقة، لم يكن المجاز فيه نفسه، وإذا لم يكن المجاز في نفس اللفظ، كان لا محالة في الحكم"^(١)، والحكم لا يتحقق إلا بتسبيق اللفظ.

ويظهر أثر السياق اللغوي ودوره الدلالي في الكنايات التي تظهر داخل السياق، ويجلي الجرجاني ذلك بقوله: "وإذا نظرت إليها، وجدت حقيقتها ومحصول أمرها أنها إثبات لمعنى، أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول، دون طريق اللفظ"^(٢)

وعناية الجرجاني بقضايا التركيب ونظم الألفاظ حثته لتجلية المسائل المتعلقة به، فقد أوسع أبواب كتابه لدراسة هذه المسائل وتبيينها، واستنباط مكامن الحسن والقبح فيها، فمن مسائل التركيب التي تناولها الجرجاني مسألة الحذف، فالحذف ظاهرة لغوية مستفيضة في الفعل الكلامي، وتتخذ في تشكلها أبعادا نحوية صناعية وأخرى دلالية، بالإضافة لكونها طريقا لطلب الخفة والاختصار، وقد عقد الجرجاني فصلا في تبين مظاهره ودواعيه، وما يطرد فيه الحذف.

وإذا نظرنا للحذف في بعده السياقي نجده يتماهى مع الدلالة السياقية في إضفاء المعاني والدلالات للمنتج اللغوي، فهو نموذج لكفاية النص وتحقيق أبعاده الدلالية من جانب، وفي إمداد النص بإيحاءات وإشارات لا يقدمها الذكر والإظهار، وبالتالي فالحذف أحد الروافد التي يستثمرها السياق اللغوي في استكناه دلالة الألفاظ والتراكيب.

ويصف الجرجاني تلك السمة بقوله: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر،

(١) ص ٢٩٧

(٢) ص ٤٠٣

والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدر أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين" (١)

وقدم الجرجاني صوراً من الحذف كحذف المبتدأ الذي استقر معناه في التركيب وزال عنه اللبس والخلط، وإضمار الفعل وإعمال النصب في معموله، وحذف المفعول به ووجوه ذلك والإضمار على شريطة التفسير، وفي كل ذلك "تجد من اللطف والظرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها، ثم قلبت النفس عما تجد، وألطفت النظر فيما تحس به، ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر، وأن تخرجه إلى لفظك، وتوقعه في سمعك، فإنك تعلم أن الذي قلت - كما قلت - وأن رب حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد، وإن أردت ما هو أصدق في ذلك شهادة وأدل دلالة" (٢)

ومن صور الحذف التي تناولها الجرجاني حذف جملة استغني عن ذكرها بذكر سابقها ولاحقها، فصارت من البيان والوضوح بمكان، وضرب لذلك مثالا بقوله

تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ

مُجْرِمِينَ ﴿ (٣)، فقد وصف الجرجاني ذلك الحذف بأنه "غاية في الوضوح، وذلك أنه لا يخفى على عاقل أنه جاء على معنى الجواب، وعلى أن ينزل السامعون كأنهم قالوا: فما قال له الملائكة، فقيل: ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ

مُجْرِمِينَ ﴾ (٤).

(١) ص ١٧٠

(٢) ص ١٧٤، ١٧٥

(٣) الحجر: ٥٨.

(٤) ص ٢٤٧

إن الحذف يشكل مظهراً من مظاهر تأثير السياق على النص فيما يسمى بالتأثير الكمي^(١) ويقصد به حذف بعض الكلمات اعتماداً على المساق في اكتمال النقص الذي يلحق التعبير.

ومن قواعد التركيب التي تناولها الجرجاني في بيان معاني النحو ودلائله القول في الخبر فيما هو جزء من الجملة لا تتم الفائدة دونه، وخبر ليس بجزء من الجملة ولكنه زيادة في خبر آخر سابق له وهو الحال، فالأول موضوع للمعنى إذا كان ثابتاً للاسم من غير اقتضائه التجدد، بينما يكون الآخر فيما يقع جزءاً فجزءاً، وفي العلم بذلك وضع للمعنى في موضعه في بناء التركيب وإنفاذه^(٢).

ولم تغب عن الجرجاني أهمية السياق في الوصول إلى دلالة اللفظ، فضلاً عن أن السياق يضيف على اللفظ ثراءً دلالياً، لا يكتسبه اللفظ خارج السياق، وقد أبان هذا الأمر بقوله: "ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكليم إخباراً وأمرًا ونهيًا واستخباراً وتعجباً، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدلّ على معناها الذي وضعت من صاحبته"^(٣).

وانبثق عن نظرية السياق ما اصطلح على تسميته بـ "الرصف" أو توافق الوقوع، أو الورود المتوقع^(٤)، أو المصاحبة^(٥)، ويقصد به الارتباط

(١) ينظر: المعنى وظلال المعنى ص ١٦٦.

(٢) ينظر: ص ١٩١

(٣) ص ٩٣

(٤) ينظر: دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، عبد الفتاح البركاوي ٥٢، وينظر:

ص ٢٠٠

(٥) ينظر: المعنى وظلال المعنى، محمد محمد يونس علي، ص ١٢٢

الاعتيادي لكلمة ما في لغة ما بكلمات أخرى معينة^(١)، كقولهم: أسود داكن، وأصفر فاقع، وأبيض ناصع.

وظاهرة الرصف أو المصاحبة تدخل ضمن بحث السياق اللغوي، وذلك ببيان الكلمات التي تنتظم مع غيرها، وعادة ما تنتظم الكلمة في مجموعات مختلفة في أكثر من سياق لغوي، وتؤول بدلالاتها إلى معنى خاص يستقيم في مجموع هذه السياقات، ليشكل الرصف شكلاً دلاليًا معهودًا في الاستعمال.

وقد تناول الجرجاني أثر المصاحبة بين الألفاظ وما يضيفه من معنى لا يكون في غيره، ليحمل مع روعة التركيب والرصف جودة المعنى وبيانه، فيقول " وهل تجد أحدًا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعنى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها، وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقًا للتالية في مؤداها، وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ

وَيَسْمَأُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ

الظالمين ﴿٤٤﴾^(٢) فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى

(١) ينظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص ٧٤

(٢) هود: ٤٤.

بالثانية، والثالثة والرابعة وهكذا، إلى أن تستقر بها إلى آخرها، وأن الفضل تنأتج ما بينها وحصل من مجموعها"^(١).

إن هذه التراتبية والمصاحبة بين وحدتين لغويتين أو أكثر ثمرة من ثمار دراسة السياق نتج عنها القول بتخصيص وتحديد الدلالة في مختلف السياقات المشابهة، مما يجعل من عملية تفسير الخطاب أكثر دقة ووضوحاً.

المبحث الآخر

السياق غير اللغوي

السياق غير اللغوي :

يقصد بالسياق غير اللغوي أو سياق المقام العالم الخارجي عن اللغة بما له من صلة بالحدث اللغوي أو النص، ويتمثل في الظروف الاجتماعية والنفسية والثقافية للمتكلم والمشاركين في الكلام أيضاً. أو هو جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي^(١).

ولذا فمعاني الكلمات تتغير تبعاً لتغير ذلك السياق، ويمكن إدراك المعنى بإدراك السياقات النموذجية المتكررة، والتي تدل على المعنى العام للكلمة^(٢).

والسياق غير اللغوي يقوم على عناصر أساسية هي^(٣):

- ١- المتكلم : ويشمل ذلك مشاهدته، ومعرفة صفاته وثقافته، ولغته الخاصة، وكل هذه الأمور معينة على فهم الحدث الكلامي.
- ٢- السامع وعلاقته بالمتكلم: إذ تفرض هذه العلاقة نوعاً معيناً من الحديث، وبالتالي فمستوى الحديث يحدد درجة العلاقة الشخصية بين المتكلمين.
- ٣- مجال الحديث: إذ تختلف الأنماط اللغوية باختلاف الموضوعات التي تدور حولها، وتعبّر عنها، من أدبية أو سياسية أو اجتماعية؛ ولذا فالوقوف على الموضوع الذي يدور فيه الحديث يعين كثيراً في فهم الحدث اللغوي.
- ٤- الزمان والمكان: ويعدان عنصران مهمان للوقوف على الدلالة، فالألفاظ يطرأ عليها تطور في دلالتها، أو انتقال لدلالاتها نتيجة البعد الزمني والمكاني..

(١) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي لمحمود السعران ص ٣٣٨

(٢) نظرية السياق ٨٤

(٣) السابق.

٥- حركات الشخوص وسلوكها والإشارات والإيماءات: وهي أمور لا يمكن فصلها عن الحدث الكلامي، لأهميتها في تحديد الدلالة، فالإشارة وما يصاحبها من وجوه المتكلمين، أي الحدث غير الكلامي وما يتصل به أبلغ عنده من العبارة، أي الحدث الكلامي.

٦- الظروف التي ورد فيها الحدث اللغوي: وتمس الجانب الاجتماعي والثقافي لبيئة معينة، وهي محددات مهمة في توجيه الدلالة وإيضاحها.

٧- أثر الحدث اللغوي في نفوس المشاركين: وما يؤدي إليه من ردود أفعال، تعمل على تجلية الدلالة، وكشف الغموض فيها.

وكان السياق غير اللغوي محطّ اهتمام النحويين في توجيه الإعراب وتقدير الحذف، وأترعت مصنفاتهم بذلك، فسيبويه يعتمد عليه في تقدير المحذوف، من خلال معطيات الحدث غير الكلامي فيقول: "إذا رأيت رجلاً يسدد سهمًا قبل القرطاس، فقلت: القرطاس والله، أي يصيب القرطاس .. ولو رأيت ناسًا ينظرون الهلال، وأنت منهم بعيد فكبروا، لقلت: الهلال ورب الكعبة، أي أبصروا الهلال"^(١)، ونرى سيبويه فيما سبق قد استحضر السياق غير اللغوي بأكمله حين نصّ على الرؤية بقوله: "رأيت"، والرؤية تستكمل الحدث الكلامي الناقص، وجاء تقدير الحذف موائماً للحدث غير الكلامي.

وهذا الأثر السياقي على التركيب يدخل ضمن التأثير الكمي للسياق، وذلك في حذف وحدة لغوية أو أكثر لدلالة سياق غير لغوي^(٢)، وقضية الحذف في التراكيب أفاض فيها الجرجاني، وكان السياق غير اللغوي مؤثراً بارزاً في الشواهد التي ساقها، فحين تناول حذف المفعول به، جعله على نوعين، مفعول به غير

(١) الكتاب ١/٢٥٨

(٢) ينظر: المعنى وظلال المعنى ص ١٦٦.

مقصود، ومفعول مقصود، ويحذف لدليل الحال عليه^(١)، وهو نوعان: جليّ كقولهم: أصغيت إليه. أي: أذني. والآخر خفي، وهو الذي تدخله الصنعة، ويصف الجرجاني سبيل الوصول إليه بقوله: "أن تذكر الفعل وفي نفسك له مفعول مخصوص قد علم مكانه إما لجري ذكر أو دليل حال، إلا أنك تنسيه نفسك وتخفيه، وتوهم أنك لم تذكر ذلك الفعل إلا لأن تثبت نفس معناه من غير أن تعديه إلى شيء، أو تعرض فيه لمفعول، ومثاله قول البحثري^(٢):

شَجُو حُسَّادِهِ وَغَيِظَ عِدَاهُ أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعُ وَاعٍ

المعنى لا محالة: أن يرى مبصر محاسنه، ويسمع واع أخباره وأوصافه، ولكنك تعلم على ذلك أنه كأنه يسرق علم ذلك من نفسه، ويدفع صورته عن وهمه، ليحصل له معنى شريف وغرض خاص^(٣)، وبهذا يكون السياق غير اللغوي علة لحذف المفعول به لدلالة الحال عليه.

ومن السياقات غير اللغوية ما يقع من الإشارة والإيماء، وهي دلائل لا يمكن فصلها عن الحدث الكلامي، لأهميتها في تحديد الدلالة بالإضافة إلى دورها في سد النقص المعجمي أو تصويبه، وعول ابن جني على هذا الجانب حين قال: "فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو وابن أبي إسحاق ويونس وعيسى بن عمر والخليل وسيبويه وأبو الحسن وأبو زيد وخلف الأحمر والأصمعي ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها، وتقصد له من أغراضها، ألا تستفيد بتلك المشاهدة، وذلك الحضور ما لا تؤديه الحكايات، ولا تضبطه الروايات، فتضطر إلى قصود العرب، وغوامس ما في أنفسها، حتى لو حلف

(١) ينظر ص ١٧٨.

(٢) ديوانه ١٢٤٤/٢.

(٣) ص ١٧٨.

منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة ، لا عبارة لكان عند نفسه وعند جميع من يحضر حاله صادقاً فيه، غير متهم الرأي والنحيزة والعقل"^(١).

وقد دعا الجرجاني ناظم الشعر إلى هذا اللون من الدلالة غير اللغوية، فقال: "فإننا إذا كنا لم ندعه إلى الشعر من أجل ذلك وإنما دعونا إلى اللفظ الجزل والقول الفصل والمنطق الحسن والكلام البين وإلى حسن التمثيل والاستعارة وإلى التلويح والإشارة وإلى صنعة تعمد إلى المعنى الخسيس فتشرفه وإلى الضئيل فتفخمه وإلى النازل فترفعه وإلى الخامل فتنوه به وإلى العاطل فتحتله وإلى المشكل فتجليه"^(٢)، ويضيف قائلاً: "ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبية على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج"^(٣).

لقد أولى الجرجاني هذا الضرب من السياق غير اللغوي المتمثل في الإشارة والإيماء اهتماماً ملحوظاً، جعله من أسباب الفصاحة والبيان، والبراعة والخفاء المحفز على الغوص في كنه السياق واستخراج درره. وإنه مهما تمكنا من إيضاح المفردات من خلال الوظائف اللغوية الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية إلا أن السياق غير اللغوي هو المتمم للدلالة الكاملة للأحداث اللغوية.

وتنوع النظر الدلالي في بعض شواهد اللغة وآدابها كان نتيجة انقطاع السياق الحالي عنها، بما يندرج تحته من عناصر الموقف الكلامي، وطريقة الأداء الصوتي، وما يتبعه من إشارات وإيماءات، وذلك "لأن الذين رووا هذه النصوص لم

(١) الخصائص ١ / ٢٤٨

(٢) ص ٨٠

(٣) ص ٨٧

يُعنوا بإيراد وصف كامل للمقام الذي أحاط بالنص، ومن ثمّ ينبغي لنا أن نبذل الجهد مضاعفاً.. حتى نستطيع إعادة بناء المقام بناء على أساس من التاريخ، وعلم النفس ..". (١)

وحين ننتقل إلى ما أودعه الجرجاني في دلائله في دراسة هذا الجانب المهم من نظرية السياق، نجد إشارات ولفقات تناثرت في فصول الكتاب، تضمنت أهميته والاعتداد به في بعض الأحداث، ومراعاته عند إنشاء الخطاب والحدث الكلامي.

ولأجل ذلك فقد أوضح الجرجاني أن من مستويات الكشف عن الدلالة ربط كل كلام بمقام استعماله، ومراعاة مقتضى حاله. ولا يمكن عنده وضع قاعدة واحدة تستوعب كل الحالات، وإنما لكل موقف ومقتضى حال تركيب يتلاءم معه. والمعنى عند الجرجاني يتخذ مستويات ثلاثة^(٢): أولها: معاني اللفظة المفردة أو ما يطلق عليها (المعنى المعجمي). وثانيها: طرق التعليق بين الكلم وربطها، وهي المعاني النحوية التي تفرز عبر أحكام تنظيم الجملة المعينة. وثالثها: الإبانة عما في النفس أو البيان، أو تمام الدلالة الذي يعتمد على المعنى المقالي، والمعنى الاجتماعي الذي هو شرط لاكتمال المعنى الدلالي وفهمه.

وعلاقة اللفظ بالمعنى تنتظم عند الجرجاني في التوافق والمطابقة على مستوى المعنى المحدث والنظم المنجز، ويصف أثر ذلك المعنى عند تلبسه اللفظ في سياق معين ليكتسب الفضيلة والحسن، بأن الألفاظ " تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"^(٣). والملائمة التي عبر عنها الجرجاني هي معيار واسع يشمل

(١) اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٣٧٣ .

(٢) ينظر: مقدمة المحققين ص ٢٣ وما بعدها.

(٣) ص ٩٤

السياق المقالي في محيط النص (السياق الصغير)، والسياق المقامي خارج النص (السياق الكبير).

وينفق النظم عند الجرجاني مع نظرية السياق في قواعد إنشاء الخطاب أو تفسيره ، التي تتنوع طرق بنائه تبعاً للمعنى القائم عند المتكلم ووفق ملابسات الموقف الكلامي، ويدخل ضمن الموقف الكلامي كل ما يتصل بظروف عملية الإبلاغ، من مخاطب ومخاطب وخطاب.

فمن الأصول التي قام عليها (النظم) العلاقة بين اللفظ والمعنى وذلك من خلال سياق ترتبط به عملية إنشاء الكلام ، ويصف الجرجاني هذه المنجز بأنه " لا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه ، ولا أن تتوخى في الألفاظ ترتيباً ونظماً ، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك ، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني ، وتابعة لها ، ولاحقة بها ، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس ، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النظر" (١)

ونجد ضمن هذا السياق أن الجرجاني ينفي في عملية إنشاء الكلام ، أن يكون تحديد اللفظ منفصلاً عن تحديد موقع ذلك اللفظ ، وينفي أيضاً أن يكون ترتيب الكلام منفصلاً عن الترتيب الذي قامت عليه معانيه ، بل إن عملية إنشاء الكلام نفسه تتم بفعل إنشاء ترتب المعاني نفسها بحيث لا يحتاج ذلك الكلام الى قصد أو فكر منفصل عن القصد الذي يحتاجه إنشاء المعاني، ومن هنا نجد أن الجرجاني لا يفصل نسق الألفاظ عن نسق المعاني ، ولا يفصل أيضاً القصد الذي يكون سبباً في إنشائهما.

لقد غني الجرجاني بشكل عميق بالنظم لما له من مزية في أي تركيب من التراكيب ، وخصّ دلائله بعلم المعاني القائم على مراعاة الموقف، وملاحظة الصلة التي تحدث بين معنى التركيب والمقام الذي يأتي له ، وأن أي تغيير في التشكل اللغوي للكلام يؤدي إلى تغيير في معناه ، وكانت فكرة السياق وهو يتحدث عن النظم أساسية في الأنماط التي بحثها وعرضها بالتطبيق ، وذلك مما يدل على ارتباط الفصاحة بالبلاغة من حيث هو مراعاة المقام وربط ذلك كله بالنظم الذي يحقق الدلالة الكافية للنص.

ومن تطبيقات سياق المقام التي تناولها الجرجاني بالدرس استعارة المقال المشهور للمقام الطارئ، على سبيل الاستشهاد أو الاقتباس أثناء الحديث، لنوفق بين كلام ذائع الشهرة انقضى مقامه الأصلي الذي قيل فيه، وبين مقام مشابه، وقد أورد الجرجاني جملة من الأمثلة والكنيات التي ينطبق عليها هذا المعيار كقولهم: (فلان جبان الكلب) و(مهزول الفصيل) و(كثير الرماد)، ويوضح الجرجاني هذا التعالق بين هذا النص (النموذج) بموقفه الأساس والمواقف اللاحقة والشبيهة به، فيقول: "وكما أن من شأن الكناية الواقعة في نفس الصفة أن تجيء على صور مختلفة كذلك من شأنها إذا وقعت في إثبات الصفة أن تجيء على هذا الحد، ثم يكون في ذلك ما يتناسب كما كان ذلك في الكناية عن الصفة نفسها".^(١)

وإيراد الكلام القديم المشهور في المقام الجديد هو على سبيل التفيق، وذلك لما فيه من صفات تجعله صالحاً للاستحضار في المقامات التي تشبه مقامه الأصلي الذي قيل فيه، فيصبح المقال القديم جزءاً من المقال الجديد"^(٢)

(١) ص ٣٠٣

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٣٤٠

والكنايات السابقة قائمة على خلفيات اجتماعية وثقافية لازمة لتتبع دلالاتها، وهذه الصلة بين المنجز اللغوي والسياق الاجتماعي والثقافي أحد المساقات المحددة للدلالة. بل إنها تقدم إضافة دلالية لا تظهر في النص، ومن المساقات الثقافية في هذا الجانب المساق الديني في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ

اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۗ﴾^(١)

حيث جعل أبو الحسن الرماني هذا التوبيخ لنبي الله عيسى عليه السلام توبيخاً لفظياً، ولقومه توبيخاً في المعنى؛ لأن الله علم أن عيسى عليه السلام لم يقل ذلك، وإنما لأجل أنه كان بحضرة قومه ليوبخهم على ذلك، ويكذبهم بما قالوا^(٢).

وبهذا قد يقدم النص دلالة مركزية (أولية) غير مبتغاة، وتكون الدلالة الهامشية (الغائية) مرادة ومقصودة، مصدرها مساق ثقافي غير نصي، كان المعول عليه في استجلاء فضاءات اللفظ.

ومن المرتكزات التي قام عليها النظم عند الجرجاني مراعاة (الموقعية)^(٣) فيه، وهو اكتساب الكلمة دلالتها من تفاعل التصور فيها مع التصورات الأخرى، ومن خلال العلاقات الزمانية والمكانية، لتحقق أبعاد السياق الدلالية بما تضيفه من هامش دلالي منبثق من محيط النص وخارجه، ويبرهن الجرجاني لتلك الأبعاد من خلال هذا المثال الذي يقول فيه: "فإنك تجد متى شئت الرجلين قد استعملتا كلمًا بأعيانها، ثم ترى هذا قد فرع السماء، وترى ذلك قد لصق بالحضيض، فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا

(١) المائدة: ١١٦.

(٢) معاني الحروف، تحقيق عبد الفتاح شلبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص ٣٢

(٣) مقدمة المحققين محمد الداية وفايز الداية، ص ٢٤

استحقت المزية والشرف واستحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم لما اختلف بها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبداً".^(١)

وتناول الجرجاني أثر السياق غير اللغوي في الكشف عن بعض الدلالات التي لا يختص التركيب بالإشارة إليها، وذلك حين يقوم سياق الحال بإضفاء دلالة والإشارة إليها من خلال استثمار المشاهدات والأحوال التي لا تقع ضمن النص، وهي مع ذلك تشغل دوراً مهماً في إحداث الفعل الكلامي وتفسيره بعد ذلك، فيضرب مثلاً لهذا الحدث بأنك: " إذا رأيت شخصاً من بعيد، فقلت: ما هو إلا زيد. لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد، وأنه إنسان آخر، ويجد في الإنكار أن يكون زيداً، وإذا كان الأمر ظاهراً كالذي مضى، لم تقله كذلك، فلا تقول للرجل ترفقه على أخيه، وتنبهه للذي يجب عليه من صلة الرحم، ومن حسن التحاب: ما هو إلا أخوك"^(٢).

إن المثال السابق الذي صورته الجرجاني حشد فيه سياقي اللغة والموقف (الحدث) ونقلنا إلى أن نشارك طرفي الحوار هذا المشهد، من خلال ترجمة لغة الموقف إلى لغة منطوقة أو مكتوبة، فيظهر بذلك أثر الموقف في اختصار النظم دون الإخلال به، ولا شك السياق غير اللغوي سيبقى الأقوى في دلالاته وبيانه من تسييقه نصاً.

والجرجاني يقرن الفصاحة بالدلالة غير اللغوية ويشير إلى ذلك بقوله: " والأمر في علم الفصاحة بالضد من هذا، فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه، وجدت جلّه أو كله رمزاً ووحياً وكناية وتعريضاً وإيماءً إلى الغرض من وجه،

(١) ص ٩٦

(٢) ص ٣٢٩، ٣٣٠

لا يفتن له إلا من غلغل الفكر، وأدق النظر، ومن يرجع من طبعه إلى ألمعية يقوى معها على الغامض، ويصل بها إلى الخفي، حتى كان بسلاً حراماً أن تتجلى معانيهم، سافرة الأوجه، لا نقاب لها، وبادية الصفحة، لا حجاب دونها، وحتى كأن الإفصاح بها حرام، وذكرها إلا على سبيل الكناية والتعريض غير سائغ".^(١)

ومصطلح معنى المعنى أحد القضايا التي تناولها الجرجاني وكان للسياق غير اللغوي أثر في تشكّله ورسم دلالاته، وقد أوضح الجرجاني المراد بمعنى المعنى بأنه: "ضرب آخر، أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض..، أو أن تعقل من اللفظ معنى ثم يُفسي بك ذلك إلى معنى آخر"^(٢).

وبالرغم من أهمية السياق غير اللغوي في الإحاطة بالمعنى وتحديده، إلا أنه غير خاضع للتقعيد أو التحليل كما في بقية الوظائف اللغوية، وذلك لارتباطه بالإنسان في مواقفه المتعددة والمتغيرة، والمجتمع بثقافته وأنماطه ونسيجه المتشكّل من عادات وتقاليد وذاكرة وإحساسات وعواطف شعبية مختلفة، ومن ثمّ كان من الصعب إخضاعه للتقعيد.^(٣)

ومن خلال التصور السابق لقواعد تحليل السياق غير اللغوي التي لا تستحكم أصولها ورسومها في قواعد دقيقة محددة، نجد أن هذه الإشارات والفتات التي ضمنها الجرجاني - وإن كانت ذات قيمة وأهمية في مجالها -

(١) ص ٤٢٠

(٢) ص ١٨٤، بتصرف.

(٣) ص ٤٣، بتصرف.

إلا أنها لم تكن مستوعبة لمعظم أحداث الموقف غير الكلامي، وهي لا تزال تتجدد وتتولد وفقاً لظروف الزمان والمكان والبعد النفسي والثقافي والاجتماعي فيها. كما أن كتاب "دلائل الإعجاز" كان الباعث على تأليفه ورسم فصوله وما تضمنت من أصول وقواعد كانت تتجه إلى عملية إنشاء الخطاب، وهي عملية يتضافر فيها السياق اللغوي بشكل بارز، ويكون السياق غير اللغوي محدوداً ببعض المواقف الكلامية التي يتطلب فيها مراعاة وجوده عند إنشاء الخطاب. وبالمقابل فإن المدونات التي تتناول الدراسة والنظر في وجوه تفسير الخطاب تتخذ من السياق غير اللغوي ركيزة وتضع له عناية بالغة في ذلك، ويفرد له مجال رحب لمعالجة النصوص وتفسيرها.

وهذه المعادلة ناتجة من أن المنتج للفعل الكلامي يفترض في خطابه كمال الدلالة، وإلا لم يكن لخطابه الكفاءة اللغوية المشروطة في أي سياق، وبالمقابل فإن المفسر لهذا الخطاب لا يمتلك الكفاءة اللغوية - ضرورة - في كل منتج كلامي، وبالتالي فإنه أكثر احتياجاً واهتماماً بالسياقات غير اللغوية الممكنة.

وما سبق لا يزهده في آراء الجرجاني بقدر ما يعظم هذه البراعة في صناعة النظم وإنتاج الخطاب التي استثمر فيها أوجه الدلالة وأثر السياقات المختلفة في النظم التي تنسجم مع أحوال إنشاء الخطاب.

والعقلية التي انبثق منها النظم كانت تنسجم مع النظرية السياقية دون أن تذوب فيها، ومتفقة مع منتقدي السياق - فيما بعد -، والتي تحفظت على بعض الآراء والأحكام المتصلة في السياق، فلقد كان نظر الجرجاني إلى أهمية السياق في أنه قادر على الكشف عن الدلالات المتولدة من التركيب، وذلك لا يعني تجريد اللفظ من المعنى كما ذهب إلى ذلك السياقيون^(١)، فاللفظ والسياق يتكاملان في تحقيق

(١) ينظر ص :

الدلالة وبيانها، أما أن يكون اللفظ شكلاً لا يحمل أي دلالة خارج النص، فإن الجرجاني يرفض ذلك ويخطئه، ولذا نجده يقرر هذا الأمر بقوله: " واعلم أنني لست أقول إن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة أصلاً، ولكني أقول: إنه لا يتعلق بها مجردة من معاني النحو، ومنطوقاً بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوحيها". (١)

والواقع أن المعنى الصادر عن السياق ليس من صنع السياق وحده حتى ينسب إليه، فالمعنى المعجمي إنما هو في المقام الأول معنى إفرادي، وبالتالي فإن دور السياق لا يتجاوز إقصاء بقية الدلالات التي تكمن في الكلمة المعينة وإبعادها، بحيث ترجح دلالة واحدة للكلمة، والمرجح في ذلك هو السياق ويمكن القول إن الكلمة إذا وضعت في سياقات مختلفة ليست كالماء الذي يخضع لونه للون إنائه الذي وضع فيه، وإنما الكلمة كالحرباء التي تتلون بلون المكان الذي تحل فيه^(٢)، فالكلمة تمتلك التنوع الدلالي الذي يجعلها تنسبك في سياقات متنوعة، فالتغيير في دلالتها ينطلق من داخلها، لا بتأثير خارجي عنها، والسياق وظيفته الكشف ليس إلا.

(١) ص ٣٨٨

(٢) ينظر المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، محمد محمد يونس علي ص ١٢٤،

دار المدار الإسلامي ط ٢٠٠٧

الخاتمة

إن قراءة التراث قراءة متأنية عبر الرؤى والنظريات الحديثة في اللغة يفتح للقارئ آفاقاً رحبة من كنوز المدونة العربية، فبالرغم من تقادم عهدنا إلا أنها لا تزال قشبية الفكر محكمة التداول.

انطلقت نظرية السياق من الكشف عن دلالة الوحدات اللغوية بما تضمنته من علامات صوتية وبنى صرفية، ومن ملاحظة العلاقات التركيبية، والسياقات غير اللغوية لاستكناه المنجز اللغوي، وتفسير دلالاته اللفظية والتركيبية.

وتقاطعت نظرية النظم مع السياق على المستوى التركيبي والسياق غير اللغوي وكانت أكثر دقة في تفسير التركيب، والكشف عن مضامينه الدلالية، فحققت نتائج قيمة في تفسير مظاهر التركيب كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والإظهار والإضمار، والوصل والفصل.

وإن كانت نظرية النظم لم تجرد اللفظ من دلالاته إلا أنها جعلت الفصاحة في التركيب، والبراعة في تساوق الألفاظ وتضاممها، وتوليد العلاقات النحوية بينها. والتأثير الموقعي للكلمة - في نظرية النظم - أكسب دلالتها مزيداً من التفاعل داخل النص، ومن خلال العلاقات الزمانية والمكانية، لتحقق أبعاد السياق الدلالية بما تضيفه من هامش دلالي.

ويعد النظم والسياق إلى رسم العلائق النحوية، وموضعها في الجملة، من خلال اقتفاء أصول النحو ورسومه، لتظهر علاقة التأثر والتأثير بين النظم والسياق؛ لتكوين النص بصورته النهائية
الثالوث في قضية الدال والمدلول

وإذا كان العنصر النحوي يمدنا بالمعنى الأساسي، فإن العنصر السياقي يمدنا بالمعاني الإضافية التي يكشفها السياق اللغوي، بالإضافة إلى ما يقع في النص من تحول المعاني النحوية وانتقالها.

وقد يقدم النص دلالة مركزية (أولية) غير مبتغاة، وتكون الدلالة الهامشية (الغائية) مرادة ومقصودة، ومصدرها مساق ثقافي.

والدلالة المجازية بما تحمله من أبعاد دلالية لا تظهر دلالاته إلا من خلال النظم، وبذا يكون السياق أداة مهمة في الكشف عنه.

والحذف يتماهى مع الدلالة السياقية في إضفاء المعاني والدلالات للمنتج اللغوي، فهو نموذج لكفاية النص، وإمداده بإيحاءات تزيده وضوحاً، وذلك من التأثير الكمي للسياق على الوحدة النصية.

وشكلت التراتبية والمصاحبة بين وحدتين لغويتين أو أكثر ثمرة من ثمار دراسة السياق وقواعد النظم، نتج عنها القول بتخصيص وتحديد الدلالة في مختلف السياقات المشابهة، مما يجعل من عملية تفسير الخطاب أكثر دقة ووضوحاً.

وعلى الرغم من أهمية السياق غير اللغوي في الإحاطة بالمعنى وتحديدده، إلا أنه غير خاضع للتقعيد أو التحليل أو الثبات.

لقد كانت عملية إنشاء الخطاب عملية يتظافر فيها السياق اللغوي بشكل بارز، ويكون السياق غير اللغوي محدوداً ببعض المواقف الكلامية التي يتطلب فيها مراعاة وجوده عند إنشاء الخطاب.

إن العقلية التي انبثقت منها النظم كانت تنسجم مع النظرية السياقية دون أن تدوب فيها، ومتفكة مع منتفدي السياق - فيما بعد - الذين تحفظوا على بعض الآراء والأحكام المتصلة في السياق.

فهرس المراجع

- القرآن الكريم .
- أساس البلاغة لأبي القاسم جار الله الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨ م .
- الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيد صحنه أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين القفطي، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٠٦ هـ .
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٩ هـ.
- جمهرة اللغة لأبي بكر محمد بن دريد، تحقيق: رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين ، ط١ ، ١٩٨٧ م.
- الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية.
- دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، عبد الفتاح البركاوي. القاهرة، ١٤١١ هـ .
- دلالة السياق، ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، ، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى ١٤١٨ هـ .
- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد الداية وفايز الداية، دار الفكر، ط١، ١٤٢٨ هـ .
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي .

- دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة د. كمال بشر. مكتبة الشباب.
- ديوان أبي تمام، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف.
- ديوان البحتري . تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي ، دار الكتب الخديوية، ١٩١٤م.
- علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، هادي نمر، دار الأمل، ط١، ١٤٢٧هـ .
- علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق، فايز الدايدة. دار الفكر، ط٢، ١٤١٧هـ .
- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط٥، ١٩٩٨م .
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي لمحمود السعران ، دار النهضة.
- كتاب سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٣، ١٤٠٨هـ .
- لسان العرب لابن منظور، دار إحياء التراث، ط٣، ١٤١٩هـ .
- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثقافة، ١٩٩٤م
- اللغة، ج.فندريس ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص. مكتبة الانجلو المصرية.
- المخصص لأبي الحسن علي بن سليمان المعروف بابن سيده، دار الكتب العلمية.
- مدخل إلى علم اللغة ، محمود حجازي، دار قباء.
- معاني الحروف، لأبي الحسن الرماني، تحقيق عبد الفتاح شلبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

- معجم الأدباء لياقوت الحموي، ت إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي ط١، ١٩٩٣ .
- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق عبد السلام هارون. دار الفكر.
- المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية ، محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي ط٢ ٢٠٠٧ .
- النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، لمحمد حماسة عبد اللطيف، ، دار الشروق ط١، ١٤٢٠هـ .
- النص والسياق فان دايك، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق ٢٠٠٠م.
- نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، دراسة لغوية نحوية دلالية، د. عبد النعيم خليل ، دار الوفاء، ط١، ٢٠٠٧م.

